دراسات فى الفن :

الحب والفن والله

معراج غاندى الفنان

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

يصف القرآن أهل الجنة فيقول : «دعواهم فيها سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

ويعرف الإنجيل الله فيقول : « الله محبة » .

ويروى الأستاذ فتحى رضوان فى كتابه عن غاندى أنه لما كان فى جنوب أفريقيا يجاهد الإنجليز فى سبيل الهنود وكرامة إنسانيتهم كان فى اجتماع ، وفيما هو يغادره مصطحباً سيدة انجليزية ألفته السيدة يتسلل من جانبها إلى ركن مظلم ، ورأته فى الركن يواجه شبحاً ورأته يمد يده إلى يد الشبح يأخذ منها شيئاً ذا نصل براق ، ورأته يخفى ذا النصل ، ثم يتأبط الشبح فيخرج به من الظلمة إلى النور يساره ويحادثه ويباسطه ويوادعه ، ثم يعاهده ويستوثقه أمراً جللاً ثم يحييه ويفارقه فينصرف الشاب الهندى مطمئناً مؤمناً معتزاً بما فيه من كبرياء المستشهد بعد أن كان الشبح المتخفى المتلصص النازع إلى الجريمة . فراع السيدة هذا الذى رأته وسألت غاندى فقال لها : أحسست أن هندياً كامنا لى يريد القضاء علىّ لأنه حسب فىّ السوء والغدر وخيانة الهنود ، فسميت إليه ، وأنا مملوء بحبه كما أحب كل الهنود ... اتجهت إليه وأنا فى هذا الحب ، فما مس حبى الغل فى نفسه حتى نورّه فتألق حباً ، فتعارفنا وتفاهمنا فتآلفنا ، وتفارقنا ونحن إخوان فى حب الهند والذود عن الهند .

١٨ ص ١٣

معجزة من معجزات الحب أيد الله بها غاندى ونجاه بها من كيد كان فيه الردى والهلاك ، ولم تكن معجزة كهذه لتقع بين سمع إنسان وبصره من غير أن تفعم نفسه وتشغلها باستدراكها متحسسة متفهمة تواقة إلى تحصيلها بعد ما أعلن صاحبها أنها تيسرت له بتدريب روض عليه نفسه فكان هذا الإعلان إغراء بالمعجزات تباح لمن يريده، فدار بين السيدة وغاندى حديث تقصت فيه السيدة الحب وتعلته من أستاذه الجديد ، فكان مما علمه إياها أنه قضى زمناً يتام فى مسارح العقارب والثعابين ، وإنه كان يأمن عدواتها ، يؤمنه حب لها كان يطوى نفسه عليه ، وكانت تحسه نفاثات السم فتساله وتتجاوزه

معجزات أخر تنساب من روح غاندى فى نومه . فأى رجل هو ؟

إنه من أولئك الذين تحيتهم سلام ... وإنه من أولئك الذين يحققون فى الأرض وصية الإنجيل ودعوته إلى الحب الذى يقول إنه هو الله . فأى رجل هو ؟

ليس فى تاريخه ما يدل على أنه عبقرى العقل كما يعرف الناس العباقرة . كان فى صباه تلميذاً متأخراً متهيباً منقبضاً عن الدرس واللعب . وكان فى شبابه طالباً مجداً مثابراً شئالاً يعوض بالدأب والجهد ما تفوته عليه قلة الذكاء ، وكان بعد ذلك فى بدء اصطناعه المحاماة حيران متواضع الأمل ، راضياً كل الرضا بأيسر النجاح لو يؤاتيه من أشق العمل ، فهو يستفتى المجربين عن طرق النجاح كاليائس منه ، ثم يطرب ويسعد عند ما يبشره أحدهم بأن له التوفيق ما كد وانكب على عمله بالعناية والإخلاص

فهل كان غاندى على هذا غبياً متراجع العقل حين كان فى صباه التلميذ المتأخر المتهيب المنقبض عن الدرس واللعب ، وهل كان فى الحق قليل الذكاء حين كان فى شبابه طالباً شئالاً

لا يعرف فيه أساتذته ولا زملاؤه العقل المتألق الخطاف ويعرفون عنه الدأب والجد ، وهل كان بعد ذلك المحامي الخائر الضعيف الجبان حين كان يسائل المجربين عن طرق النجاح في المحاماة وحين رضيت آماله أن تتواضع فتقعد عند تحصيل الرزق الهين والعيش التافه ؟ هل كان غاندي هذا الإنسان الرخيص ؟

الأدلة والدلائل من حياته تنفي عنه هذا . بل إنها تثبت له عكسه ونقيضه ، فغاندي اليوم هو الرجل الأول بين رجال الإنسانية الروحية ، وليس هو الرجل الأخير بين رجال الإنسانية المادية . فلو كانه ما حسبت له انجلترة حساباً وما رهبت جانبه ، فهي لا تخشى الفسيسين ولا الرهبان بل إنها لو أمكنها أن تصرف الناس الذين تنزل بلادهم عن الاشتغال بأمور دنياهم ما ترددت في ذلك وما تأخرت عنه ، وما امتنعت عن الإنفاق على الأديرة والمعابد تحشر فيها الناس زاهدين حالمين ، لتفرغ لها الأرض ترتع فيها تأكل وتشرب وتلعب وتعيث فيها تحضيراً وتمديناً .. أما وهي تخشاه ، وتتقيه ، وتتملقه حيناً وتقسو عليه حيناً ، فلا بد أنها تعرف فيه خطراً خطيراً تخاف أن يكتفها وأن يخنقها بهذه الخيوط الدقيقة التي ينزلها من القطن والصوف بمنزله الصغير الذي لا يزيد ثقلاً ولا حجماً على لعب الأطفال ...

لا يمكن أن يكون غاندي هذا قريباً من الغباء ولا الغفلة ؛ وإنما هو ذكي يتسامى ذكاؤه على ذكاء الناس ، وعاقل يتعالى عقله على عقولهم . وليس في هذا عجب ولا فيه خرق لنظم الطبيعة . فنحن إذا تأملنا نفس غاندي ، رأينا الرفعة والسمو متحققين فيها مؤكدين في الناحيتين اللتين تكملان النفس الإنسانية إذا أضيفتا إلى العقل ، وهاتان الناحيتان هما الخلق والحس . فسيرة غاندي تثبت أنه من أرفع الناس خلقاً ، ومن أشدهم استساغة لمعاني الشرف والنبل والوفاء والبر والصدق والعطف والتضحية ، وغير هذه من الفضائل ... فقد كان في الهند وفي انجلترة وفي إفريقيا الجنوبية ، مثلاً سامياً للإنسان الفضيل الذي يأسر بالفضل أهله وذويه ، والذي يعجز خصومه عن أن يتهموه بنقيصة خلقية ، وعن أن يصفوه برذيلة . هذا على الرغم مما يرويه هو من عيوب نفسه وزلاتها . فقد اعترف على نفسه بأنه كان يسرق من أبيه ما يشتري به الدخان ، كما سجل على نفسه أنه اقترف الزنا بإيحاء من صديق شقي كان يغريه بالفساد في أوائل أيام الشباب ... فهذه الخطيئات العابرة لم تكن في الحق أكثر من محاولات صبيانية أراد غاندي أن يتذوق بعض الطعوم من لذائذ البدن عن طريقها فما تذوقها حتى عافها سريعاً ، لأنه رأى فيها تعبداً لغير الطلاقة والانطلاق . فعاد وصلح؛ ومنذ أن صلح وهو - فيما يعلم الله وفيما تقول حياته المكشوفة الصريحة — لا يقترف من الذنوب إلا هفوات الأولياء الصالحين .

هذه هي أخلاق غاندي ! فهو بها أقرب من نعرف من الأحياء إلى الكمال ، وهو إلى ذلك بإحساسه أقرب من نعرف من الأحياء إلى الكمال أيضاً . فقد مكنه الله من أن يصفي نفسه ، وأن ينقيها حتى ليبلغ من صفائها ونقائها أن تعكس على النفوس أنوار إحساسها فتغيرها وتملأها بأمان النور وبهجته . وهذه مرحلة من الإضاءة الروحية يبلغها الإنسان بعد أن تتم له استضاءة نفسه هو بالإحساس الصادق والاستجابة لصدق الإحساس ، وليس أدل على ما نقوله من هذا الحادث الذي طعن فيه غاندي بالحب ذلك الذي أراد أن يطعنه بذي النصل ، فتقتل فيه النزوع إلى الشر والعزم على الجريمة بعد أن جمع لها إحساسه وإرادته وإيمانه ، وبعد أن دبر لها وقفته وخفيته وأعد لها سلاحه ، وبعد أن هانت عليه فيها حياته وفرط لها في شبابه !

غاندي إذن هو أكمل من نعرف من الأحياء خلقاً وأنضجهم حساً . فإذا صدق أنه قليل الذكاء ضعيف العقل لأنه احتسب في التلاميذ من المتأخرين ، ولأنه كان من الشبان الشغالين ، ولأنه كان من المحامين الحيارى التائهين ، فإن أكبر ما كان يمكن أن تتصوره يصل إليه من مراتب الرقي البشري هو أن يكون شيخاً لطريقة من طرق التعبد والتدين اللذين يتطلبان في الصالح من أشكالهما هذا الصفاء في الحس، وهذا الكمال في الأخلاق، وقد مهدت الحياة لغاندي أن يكون هذا الشيخ ، ولكنه أباه ، وإن أنكر عليه شعبه هذا الإباء ، وإن قدسه أهل ملته ورفعوه إلى ما يطاول مرتبة الأنبياء . ذلك بأن شعبه إذا لم يكن مفطوراً على تقديس المصلحين الأتقياء ، فهو على الأقل مأخوذ بهذا التقديس متدرب عليه ، فلو أن غاندي شاء أن يكون زعيماً من زعماء الدين لكان هذا الزعيم ، ولما أنكر عليه الزعامة أحد ، ولكنه عدل

عن هذا إلى ناحية أخرى من نواحي الحياة تستلزم الكفاح العقلي والانتصار فيه ، كما يسعدها التفوق الحسي والسلطان الخلقي . ولقد تم لغاندي النصر في هذه الناحية بشهادة بعض الكبار من رجال الإنجليز الذين قارعوه في الهند والذين وصفوه فقالوا : إنه رجل يمتاز في تكوينه على غيره من الرجال ... وليست مغالبة الإنجليز الكبار بالأمر الهين ، ولا الانتصار عليهم بالأمر المتاح لكل إنسان ، والإنجليز حين يغالبهم الناس وحين يكافحون هم هؤلاء المغالبون لا يكافحونهم بالإحساس ولا بالأخلاق وإنما لهم في المكافحة سلاح آخر هو العقل ، ويكاد العقل الإنجليزي يكون في أرقى مراتب العقل البشري ، فإذا غلبهم غالب بسلاح العقل فلا يمكن أن يقال إنه قليل الذكاء أو إنه متقهقر العقل ، ولقد غلبهم غاندي في مواقع كثيرة فلا بد من أن يكون أقوى منهم عقلاً وأشد ذكاء

وإنه كذلك ! وعلى هذا يتم له الانسجام النفسي القائم على أساس من النسب النفسية الرفيعة المتألفة من الحس الأنضج ، والخلق الأكمل ، والعقل الأوفر

وهذا النوع من العقل هو الذي أردت أن ألفت إليه نظر القارىء في حديث اليوم . فقد رأى القارىء في أحاديث سابقة نافراً من الزي الأوربي الذي يتزيى به العقل الحديث ، والذي ينزع إلى العلم المادي والحضارة المادية نزوعاً يكبت في الإنسان إحساسه ويخمد أخلاقه . وقد رأى القارئ في حديث الأسبوع الماضي أرجو للإنسانية أن ترقى فيتحقق لها العقل الذي يطالبنا به الله فتحله محل هذا العقل الأوربي الذي لا يصدق فيه اسمه إلا من حيث إنه غلل الحس البشري وكتف الأخلاق كتفاً لا يسمح لها بالسمو إن لم يهبط بها إلى الحضيض

عقل غاندي هو بشارة من بشائر الرقي الإنساني التي تسارع إلى الظهور في بعض مراحل التطور البشري ، ولو لم تتأهب الإنسانية لإحسان استقبالها وإحسان استنباتها

فما هي ميزة هذا العقل وما هو طابعه ؟

إنه العقل النافذ الهادئ المنطلق إلى هدف يناديه من السماء والذي يدرك حقائق الأشياء وما بين الأشياء من علاقات منذ أن تعرض له هذه الأشياء ، والذي يلهمه الإحساس الصادق فلا يخطئ في تقديره ولا تكييفه إياها ، والذي تقوده الفضيلة إلى إحسان الموازنة بين الحقائق وبين الأشياء فيعرف أيها يأخذ لنفسه وأيها يدع ، وأيها جدير بالاهتمام وأيها حقيق بالإهمال ، وأيها لازم لتقويم كيان الفرد ، وأيها لازم لصلاح المجتمع ، وأيها بعد ذلك حشو للعقل يتخمه ولا يغذيه

هذا هو العقل الذي زان الله به غاندي ، وهو عقل ممتاز سام يدل على غاندي كما يدل عليه إحساسه وكما تدل عليه أخلاقه فهو عقل خاص نادر لأن غاندي رجل نادر ، وهو بطبعه غريب على هذه الحياة وهذه الحضارة ، غريب على علومها وعلى الأجواء التي يجول فيها عقلها ، ولذلك فإنه يكاد يصعب عليه أن يصاحب العقل العادي وأن يعاشيه ، وإنما هو ينفر من ذلك العقل العادي بطبيعة تكوينه ، والناس الذين يعتبرون الحساب ، وعلوم الرياضة « المتسحلفة » مقياساً للذكاء يرون هذا الاختلاف بين عقل غاندي وبين عقلهم ويأبون أن يتلمسوا الضعف في أنفسهم ، وينسبون الضعف والتأخر للعقل الخارق العجيب الذي يحيرهم والذي يرونه كالعاجز عن مجاراتهم ، وهو في الحق مستقيم يتجه إلى هدف خاص ينزع إليه صاحبه بإحساسه وأخلاقه ، فلا يلتوي على نفسه ولا يتعقد ولا يتعثر مثلما تتعثر العقول المتحضرة حينما تجمع علمها من المتناثرات من الحقائق لا يحدوها في هذا الجمع غرض ولا تريد من سبيله أن تصل إلى هدف ولا أن تؤدي به رسالة ، ولا يهمها إذا كان هذا الذي تعلمه شيء يستحق أن يعلم أو أنه لا يستحق ذلك

وهذا هو أشرف ما يدعيه العلماء لأنفسهم فهم يقولون إنهم يطلبون العلم للعلم ، وهم حين يدعون هذا يحسبون أنهم يردون به على أولئك الذين ينتقصون قيمة علمهم ويتهمونه بأنه سعى إلى خدمة المادة في الحياة ، أو أنه سعى إلى خدمة الشر . فإذا صح هذا الذي يدعونه ولم نقس عليهم قسوة من يتهمونهم بمختلف التهم لم يكن علمهم إذن إلا ضرباً من الفضول أو التجسس على قوى الطبيعة . والفضول سخف ، والتجسس رذيلة

أما العلم الذي يصل إليه العقل الفضيل الحساس فليس فيه من الفضول شيء ولا من سخف الفضول ، وليس فيه من التجسس شيء ولا من رذيلة التجسس ، وإنما هو علم يطلبه صاحبه لأنه يحبه ، ويرفض ما عداه لأنه لا يريد شيئاً غيره ، وهو يسعى